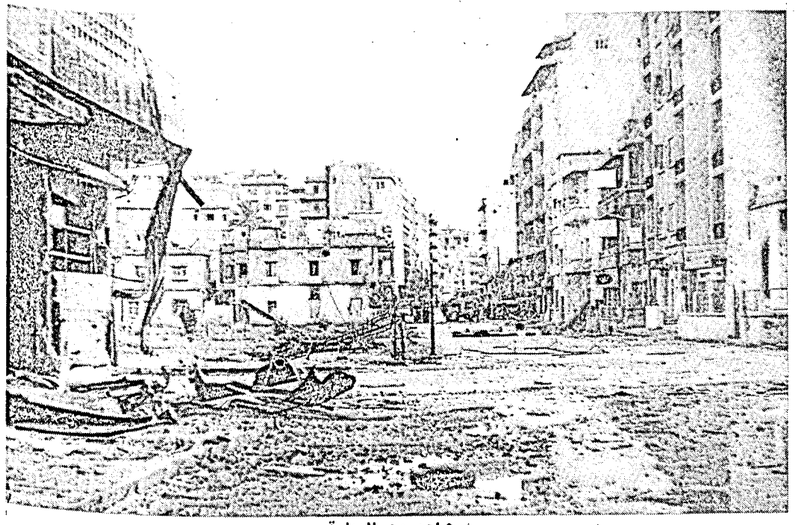

مشاهد من الدوامة

"لبنان في دوامة"

فيلم "محايد" يرضي جميع الاطراف!

منذ فترة والصحافة الفنية في فرنسا ، تتناول بعطف أبوي فيلما عن الاحداث اللبنانية ، قام في تصويره في لبنان ، ابان الجولة الاولى والثانية ، بعض مراسلي التلفزيون الفرنسي بمعونة الصحافية اللبنانية جوسلين صعب .

اسم الفيلم « لبنان في دوامة » ... ونستطيع في البداية ان نقول عنه انه « فيلم في دوامة » عن « لبنان الخارج من دوامة » .

يعتمد بناء الفيلم على مجموعه من المقابلات تتم مع معظم الاطراف المتنازعة ، يحصل اليمين اللبناني منها على حصة الاسد ، ويساعد التعليق المقابلات ، اذ يشرح بموضوعية بعض الاسباب التي ادت الى الازمة اللبنانية .

يبدو ان صانعي هذا الفيلم ، قد رغبوا اساسا في صنع فيلم « حيادي » يتيح المجال امام الاطراف المختلفة لابداء رأيها دون اي مقاطعة . وقد قصد صانعو الفيلم ان يكون اسلوب المقابلات هو الوسيلة التي تقود الى الحياد ، اضافة الى التعليق الموضوعي احيانا والموضوعي شكلا احيانا اخرى . غير اننا نقول منذ البداية ايضا ان الاسلوب حينما يتعارض مع الوسيلة يقود في هذه الحالات الى الذاتية وينفي الموضوعية ، فالمقابلات بحد ذاتها وسيلة ذاتية في التعبير تخدم في النهاية ، الذين يقولونها .

لوحة ناقصة

ويسعى الفيلم لتغطية لوحة الاحداث اللبنانية من خلال المقابلات والتعليق . ولكن هذه اللوحة تبدو ناقصة ، اذ لا تشمل القضية الفلسطينية ـ والعربية ، والفلسطينيون يشار اليهم في الفيلم في لمحة خاطفة عند الحديث عن بؤس سكان تل الزعتر ، حيث يقول التعليق وهو للمرة الاولى يرد على ما قيل في المقابلة السابقة على لسان بيار الجميل حول الفلسطينيين ، الذين استغلوا ضيافة لبنان : « المخيمات اخر ملجأ للفلسطينيين . ملجأ متزعزع ، المخيمات كانت عرضة للعدوان الاسرائيلي ، وهي الان عرضة لعدوان جيوش السيد الجميل » .

أين الفلسطينيون ؟

وطبعا نلاحظ ان الفلسطينيين هنا معزولين عن المقاومة الفلسطينية ، ونحن نعلم ان مخيم تل الزعتر لم يكن « ملجأ متزعزعا » حين تعرض لعدوان الجميل .

يغطي الفيلم في شكله النهائي مشكلة الطائفية في لبنان ، مشكلة النظام البرلماني ، مشكلة التسلح والميليشيات ، مشكلة التبغ وصيادي الجنوب وحرمان الشيعة من حقوقهم وحزام البؤس حول بيروت وزراعة الحشيش . ولكن الغطاء ينكشف في معظم الاحيان عن ثقوب كثيرة ، ويعود السبب في هذه الثقوب اساسا الى الاعتماد على المقابلات واطلاق حريتها . فكمال جنبلاط مثلا ، يقول في احدى المقابلات ان اليمين المسيحي طائفي ، ويقول بيار الجميل في مقابلة اخرى انه مسيحي ويفتخر بمسيحيته ولكنه غير طائفي . وهكذا تضيع مشكلة الطائفية عمليا ، اذ لا يعرف المتفرج من يصدق (نحن نعني المتفرج الذي لا يعرف) . وكذلك الامر بالنسبة لمشكلة التسليح . وتتجرد هذه المشكلة في الفيلم من اسبابها ، فمثلا يحكي احد الارستقراطيين وهو يلعب التنس ويرتدي ثياب الرياضة : « كثيرون يتساءلون لماذا حملنا السلاح . من جهتي لم اشعر يوما بالحاجة الى حمل السلاح او شرائه .. ولكننا بالواقع مسلحون » .

لماذا يحمل اليمين السلاح ؟

وهكذا فاليمين لا يعرف لماذا يحمل السلاح ! وكذلك ربما الكتائب لا تعرف وكذلك ايضا المهندس صفير (التكنوقراطي الذي يتحدث عن مشاريعه لتحسين لبنان) الذي اسس ميليشيا على حسابه .. لا يعرف ، رغم اننا نشاهده في الفيم وهو يستعرض مسلحيه . وتبدو مشكلة حمل السلاح في لبنان وكأنها مشكلة مزاج « الانسان اللبناني » .

فالارستقراطي الرياضي يبتسم وهو يقول : « تصوروا ان لبنان هو البلد الوحيد في العالم الذي يشتري فيه المواطن ... (يبتسم) مدفعا مثلا ».

تقابل المقابلات بعضها البعض في جدل لا يحسمه احد . خاصة وان معظم ما يقال فيها يتسم بالسطحية ، اضافة الى ان شكل المقابلات لا يوحي بالثقة فيها ، فهو يصور مثلا ، الامام الصدر واقفا بكل ابهته ، ويبدو الرخاء عليه ، يتحدث عن مشكلة المحرومين والفقراء ! ويتحدث عبد المجيد الرافعي في طرابلس عن نضال حزبه فيلخصه بفتح مستوصف مجاني فيما يقدمه التعليق كزعيم حي ! وفواز طرابلسي يتحدث عن برنامج الحركة الوطنية وهو يلصق رأسه على الجدار ويغمض عينيه وكأنه شبه نائم وجنبلاط يهاجم الرأسماليين والاقطاعيين وهو يقف امام قصره الفخم في المختارة ! ومن الغريب ان تجري المقابلات بالمقابل مع رجال اليمين « المسيحي » في شكل يوحي بقوتهم !

هذا عدا عن ان المقابلات التي تشمل معظم اقطاب اليمين ، لا تشمل معظم اطراف الحركة الوطنية . بل ان الفيلم يطرح اسماء ويعطيها صفة التمثيل الكلي للشعب دون ان يكون الامر هكذا فعلا . فمثلا يقدم الفيلم فاروق المقدم على انه يسيطر على نصف طرابلس ويسيطر الرافعي على النصف الاخر ، متجاهلا وجود مجموعة من الاحزاب والقوى الوطنية في طرابلس ، كما ان الفيلم يصف فاروق المقدم بأنه «فوضوي وتقدمي» ويصوره في شوارع طرابلس وهو يصافح كل من وجده في طريقه .

لا مكان للقوى الوطنية الجديدة

ان العيب الثاني في الفيلم هو عدم فهم طبيعة القوى الجديدة التي سيطرت على الساحة اللبنانية وعدم استيعاب هذا التغيير في موازين القوى في لبنان .

ومع ذلك ، فان توجه الفيلم العام ، يبدو احيانا وكأنه ضد النظام القائم فهو يسهب في الحديث عن مشكلة الصيادين : « يتعرض الصيادون لأفتين ـ اسرائيل وسيطرة الاتحاد المالي » . (طبعا لا يشير الفيلم الى ان مشكلة الصيادين ومقتل معروف سعد كانتا من اسباب الحرب الاهلية في لبنان) .

ويسهب الفيلم في عرض مشكلة العدوان الاسرائيلي على الجنوب ويذكر بجملة سريعة ان الحزب الشيوعي نظم الحرس الشعبي للدفاع عن الجنوب ، كما يجري مقابلة مع الدكتور احمد مراد الذي خطفه الاسرائيليون . ويتحدث على لسان سمير فرنجيه عن حزام البؤس . ولكن هذه الايجابيات كلها تبقى ناقصة اذ لا ترتبط بالقوى الصاعدة الهادفة الى حل هذه المشاكل الاساسية في لبنان . هذا وان بعض الجمل العفوية التي تقال عن القوى الجديدة لا ترتبط بأذهان المتفرجين اذ انها تمر بسرعة مرور الكرام . فمثلا يتحدث الفيلم عن حي الظريف ويقول التعليق بشكل مقتضب : « استطاع اليسار ان يوجه الحركة الشعبية في معقل الاقطاع السني » . بينما لا يعرض الفيلم علينا هذا اليسار الذي يوجه الحركة الشعبية

باختصار نقول : ان لبنان الذي نعرفه الان ، ليس لبنان الذي يعرضه علينا الفيلم ، ولهذا قلنا في البداية عن الفيلم انه « فيلم في دوامة » عن لبنان الخارج من دوامة . وما يؤكد كلامنا ، ان المادة الصورية ، المرئية في الفيلم لا تعرض بيروت كما هي في زمن الحرب الاهلية ، ونحن نرى بيروت في الفيلم انطلاقا من وجوه الاشخاص الذين تجري المقابلات معهم . وعندما ينتهي الانسان من مشاهدة الفيلم ، يدرك انه كان بالامكان عمل هذا الفيلم وتصويره في بيروت ، قبل ان تبدأ الحرب الاهلية . ان انعكاسات الحرب الاهلية على لبنان معدومة كليا في الفيلم . وهو قد يوهم المتفرج غير اللبناني انه يتحدث عن لبنان والحرب الاهلية ، ولكنه بالتأكيد لن يقنع من شاهد لبنان اثناء الحرب ولو ليوم واحد .

○○○

عرض الفيلم في مهرجان افلام وبرامج فلسطين الذي عقد في بغداد في العشرين من شهر اذار الفائت وحصل على جائزة اتحاد النقاد السينمائيين العرب .

ربيع عديّ

جوسلين صعب
... في دوامة